الفصل الثالث

مكانة الشعر الوطني الفلسطيني في ديوان الشعر العربي

أولاً: أثر نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ ومأساة عام ١٩٦٧ في الشعر العربي

فلسطين جزء من الوطن العربي، تربطه به روابط وثيقة أهمها: اللغة والدين والتاريخ والمصالح والآمال والمصير المشترك.

لهذا ونتيجة لنكبة عام ١٩٤٨، ثم مأساة عام ١٩٦٧، وما ترتّب عليهما، اشتعلت عواطف الشعراء العرب، وكان ذلك مصدر وحي وإلهام لهم، فتفجّرت في قلوبهم ينابيع الشعر، وتفاعلوا مع الأحداث وأبرزوا صداها في نفوسهم، ولم يكتفوا بسرد وقائع النكبتين وتسجيل أحداثهما ورصد مظاهرهما وتصوير معاناة الشعب الفلسطيني، بل عرضوا أسباب النكبتين عرضاً فكرياً واعياً، ورسموا الطريق لحلّ قضية فلسطين، ولم يرسموها من الناحية العاطفية بل من الناحية الفكرية والوطنية، بطريقة موضوعية، وآتخذوا من المأساة درساً، فأيقظوا الوعي، وحذّروا الأمة من الخطر الصهيوني، وأهداف الامبريالية في الوطن العربي، ودعوا لاستعاداة فلسطين بجولة ثانية، وعبأوا لها الفكر والشعور في الأمة العربية، ورأوا أن هذه الجولة لن تنجح إلاّ بإعداد الجيوش العربية، والأسلحة الفتّاكة، وإنجاز الوحدة الشاملة التي تضمُّ الدول العربية، والتعاون الواسع، وعندئذ يقوى الصف العربي ويهابه خصومه وأعداؤه.

ولم ينسوا أن يصوّروا المؤامرات على فلسطين منذ وعد بلفور المشؤوم عام ١٩١٧، وألوان الشجاعة والبطولة التي أبداها الفلسطينيون في التصدي لهذه المؤامرات وخلال المعارك والحروب التي خاضوها، وقدّروا التضحيات التي بذلوها في سبيلها.

وأوضحوا أن خسارة فلسطين حرمتهم من منافع كثيرة، ومن زيارة مقدساتها، والتمتّع بمناخها، وليس هذا فحسب، بل إنها أصبحت قاعدة عدوان للأعداء على الوطن العربي، وبات خطر التوسع الصهيوني وخطر الحرب يهدّدان أقطارهم، ويستنزفان قسطاً كبيراً من قواهم وإمكاناتهم.

وظهر هذا التأثير في قصائد كثيرة وموشّحات وأغانٍ وأناشيد من الشعر الغنائي للشعراء العرب في الأقطار العربية وفي المهاجر المختلفة. فضلاً عن الشعر القصصي والمسرحي والملحمي، وبدا ذلك في مختلف اتجاهات الشعر الوطنية والقومية والدينية والاجتماعية والاشتراكية.

ومن غير شك أن أحداث فلسطين والحروب التي جرت بين دولة العدوان «إسرائيل» والبلدان العربية ـ ولا سيّما مصر وسوريا والأردن ولبنان ـ قد جعلت الشعراء «يعيشون واقع أمتهم ويتفاعلون معها، يشعرون بشعورها، ويعبّرون عن آلامها وآمالها في شعر واقعي. واضح القصيد بعيد عن التهويمات الخيالية، والصرخات العاطفية، والأحلام الرومانسية، وجعلت من الشعر الذي استوحاها شعراً ملتزماً هادفاً، يدعو إلى الحريّة والوحدة، والقضاء على الاستعمار وأذنابه، والخيانة وأوكارها، وفساد الأوضاع والأنظمة، وبناء الأمة العربية من جديد وتوكيد ذاتها، ومنحها الثقة بالنفس، والقدرة على تغيير حياتها»[١].

---

(١) كامل السوافيري: الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين، ص ٦٠٧.

وأشتد اهتمام الشعراء بالنزعات الإنسانية فدعوا إلى تحقيق العدل ومكافحة الظلم والعدوان، والخداع، وبيع الضمائر والنفوس، لأن الظلم لا يدوم، وأن الحرية تنتزع بالنضال والتضحيات.

وإثر نكبة فلسطين حدثت ثورات وانقلابات عديدة في بعض الأقطار العربية، ولا سيّما في مصر وسورية والعراق، وأنتفضت شعوب عدد من هذه الأقطار ثائرة على المستعمرين وحاربتهم ببسالة حتى انتزعت حريتها واستقلالها، وبمقدمتها الجزائر وليبية وتونس واليمن.

صحيح أن أثر النكبة والمأساة ظهر في الشعر العربي عامّة، ولكن أكثر من تأثر بهما هم أعلام الشعراء العرب البارزين، وأخص بالذكر منهم: علي محمود طه وأحمد محرم ومحمود حسن إسماعيل في مصر، وخير الدين الزركلي وسليمان العيسى وبدوي الجبل وعمر أبي ريشة وأمجد الطرابلسي وعمر يحيى في سورية، وفؤاد الخطيب ومحمد الحوماني وخليل مطران وبشارة الخوري وشبلي الملاط وأمين ناصر الدين في لبنان، والجواهري والرصافي والزهاوي والكاظمي في العراق، وعيسى الناعوري في الأردن.

وتردّدت في شعر هؤلاء أيضاً أصداء المعارك وأسماء الشهداء والزعماء والأدباء والمدن والأماكن المقدّسة والآثار الدينية في فلسطين، وظهرت إما في دواوين أو مجموعات شعرية، أو أبواب وفصول مستقلّة في الدواوين الشعرية أو ملاحم ومسرحيات في الأقطار العربية وبلدان الاغتراب.

وتبدو آثار أحداث فلسطين قليلة في الشعر العربي قبل النكبة، ولكنها كانت كثيرة وشاملة ومتّصفة بالانفعال والحرقة والعاطفة الصادقة بعد النكبة، وبلغ هذا التأثير أعظم مداه بعد مأساة سنة ١٩٦٧م لما لها من آثار كبيرة وخطيرة في المجالات الفكرية والسياسية والحربية والاجتماعية والاقتصادية.

وكانت مادتها الشعرية أغزر وأضخم منها إثر نكبة ١٩٤٨م، لأن خطر «إسرائيل» قد تعاظم، واتّضح أنها العدو المشترك الذي يهدّد كل العرب، وأنه بات لزاماً عليهم أن يستخدموا كل وسيلة مفيدة أو سلاح فعّال لمقاومته ومقاتلته، وبمقدمة ذلك الكلمة المقاتلة والسلاح والاقتصاد، فضلاً عن ضرورة تفاهم العرب وتوحيد صفوفهم وتعاونهم، وهذه العناصر مجتمعة غير منقوصة كفيلة بتأهيل العرب لتحقيق النصر المنشود وتحرير الأرض المحتلة.

وبذلك فإنّ قضية فلسطين قد أسهمت في إيقاظ الشعر العربي، وجدّدت نشاطه، ومهّدت السبيل لحدوث تغييرات شعرية فنيّة في الشكل والمضمون، وقوّت الاتجاهات الموضوعية والجماهيرية، وأضعفت الاتجاهات الشخصية الذاتية في الشعر، وأصبحت مادة مهمة تثري الشعر وتكسبه دوراً بارزاً وأهمية خاصة، وحمّلت هذا الشعر أعباء قضية تاريخية ـ سياسية معقّدة، وربطت نضال الشعب الفلسطيني بنضال الشعوب العربية أكثر من أي وقتٍ مضى.

ثانياً: مكانة الشعر الوطني الفلسطيني في ديوان الشعر العربي

إن أية محاولة لوضع شعر المقاومة في مكانه الصحيح في ديوان الشعر العربي تتطلّب تحديد هذه المكانة على صعيدي الشكل والمضمون.

أ ـ في المضمون

لقد أسهبنا ـ في ثنايا البحث ولا سيّما في الفصل السابق ـ في إيضاح الدور الذي التزم به هذا الشعر تجاه الجماهير من جهة، وتجاه خصومها وأعدائها من جهة ثانية.

وينمُّ المضمون عن وعي كبير للأحداث، وتنبيه الجماهير وتحذيرها

مما يحاك لها، وحضّها على النضال ودحر المؤامرات، وتوحيد الصفوف، وبذل التضحيات في قتال الأعداء. . ، ورفض الهزيمة والأمر الواقع، ورسم طريق التحرير، وبعث الإيمان في النفوس، والإيمان بالنصر، وهو في ذلك كلّه يُعَدُّ رائداً للشعر العربي.

وإذا استعرضنا رأي أدونيس[1] القاضي باعتبار شعر المقاومة شعر احتجاج ليس إلاّ، وهو لا يرى في الأرض المحتلة شعر مقاومة، أي شعراً ثورياً، بل شعراً وصفياً يمدح حركة المقاومة، ويغنّي لها، دون أن يستطيع مواكبتها، أو إبداع معادل ثوري لغوي لها، وأن الشعر لا يكون مقاوماً ما لم ينقض الكيان دون تستر أو مواربة. . . نقول:

من المعلوم أن شعراء الأرض المحتلة يتوجهون إلى جمهورهم العربي الذي يعاني من واقع التخلّف الثقافي ليحقّقوا في صفوفه الثورية السليمة، ويغذّوا الرفض العربي لواقع «إسرائيل». ويساعدوا على تفتّح وعي الجماهير، وينمّوا عاطفتها في دحض المستعمرين، وإذا تخلّوا عن توجههم إلى هذه الجماهير بسبب تخلفها الذي خطّط له الاستعمار البريطاني ثم الصهيوني فهل يفضّل أدونيس أن يتخلّوا عن هذه الجماهير؟ ونسأل إلى من سيتوجهون في شعرهم إذاً؟ وكيف يمكن عزل الشعر عن الجماهير وعن الواقع؟ وكيف لا يطمح الشعر إلى ممارسة التأثير في الجماهير والحركة الثورية؟ ولا يطمح أحد منّا أن يصمتوا أيضاً.

لم يصمت هؤلاء الشعراء بل خرجوا أكثر من مرة عن المواربة والرمز والتلميح إلى التصريح فعانوا من السجن وصنوف التعذيب والاضطهاد والتنكيل والطرد من العمل والإقامة الجبرية.

(١) راجع كتابه: زمن الشعر، ص ١٧٢.

وكيف لا يعد شعر هؤلاء مقاوماً أحياناً ومقاتلاً أحياناً أخرى، وهو يشحن الجماهير بالوعي وروح الصمود ويدفعها للتصدّي والنضال بكل وسيلة ممكنة؟ ويجدر بنا ألاّ ننسى أنّ عدداً من شعراء المقاومة شاركوا في ساحات القتال واستشهد بعضهم.

ونحن نرى أن شعر المنفى الذي يعدُّ أكثر تصريحاً وأقوى نبرة هو أيضاً شعر مقاومة وشعر ثورة، لأنه يحضُّ على المقاومة وعلى القتال. ومثله كل شعر في أي قطر عربي لأن الشاعر معرّض لملاحقة السلطات وملاقاة صنوف الاضطهاد مثلما يلاقي الشاعر في الأرض المحتلة، هناك في الخنادق الأمامية بمواجهة العدو، وشعر هؤلاء جميعاً ليس للقراءة والتأمّل بقدر ما هو للإلقاء الذي يحمّس الجماهير، ويدفعها إلى ساح النضال والقتال، وقد قيل: «دون أدب كما دون سلاح لا يستطيع الشعب أن يقاتل»[1].

إن الجماهير العربية داخل الأرض المحتلة وخارجها كانت وما تزال بأمسّ الحاجة إلى مثل هؤلاء الشعراء، وجدت فيهم من يخفّف عن النفوس مرارة الهزيمة، ويخاطب الجماهير، وينير عقولها، ويلبّي حاجاتها ورغباتها، في الكلمة الصادقة المتدفقة بالعاطفة ورفض الهزيمة، والداعية إلى الصبر والصمود.

لقد كان شعر المقاومة من أقوى العوامل التي جدّدت ثقة العرب بالوصول إلى حقهم، وأحيت في نفوسهم شعلة الأمل بغدٍ مشرقٍ سعيد.

ب ـ في الشكل الفنّي

على مستوى الفنّ لم يكن الشعر الفلسطيني ريادياً، ولا مقتحماً على

(١) قصي حسين: الموت والحياة في شعر المقاومة، ص ٢٨٣.

الأقل في مراحله الأولى، فقد تطوّرت الكتابة والشعر في الأقطار العربية منذ أواخر الأربعينات، في حين ظلّ شعراء فلسطين يراوحون داخل العمود الشعري العربي واللغة التقليدية الموروثة لأسباب خاصة بظروف هذا البلد..، و«لم يستطع إبراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود وأبو سلمى وسواهم أن يُغْنوا التراث الكلاسيكي العربي مثلما أغناه شعراء آخرون برزوا في مرحلة المدّ الوطني الذي طغى في الربع الثاني من القرن العشرين، كمعروف الرصافي والأخطل الصغير واجواهري»[1].

وقد نما الشعر الفلسطيني وترعرع تدريجاً منذ نكبة ١٩٤٨، ثم مأساة ١٩٦٧م على الخصوص، ولكنه لم يتجاوز على مستوى الشكل العربي ـ عند السيّاب والبياتي ونازك الملائكة وغيرهم ـ وظل تابعاً له، ونتيجة للتجربة الذاتية لهؤلاء الشعراء وتطورها فإنه بدأ مؤخراً يأخذ موقع لحوار بدلاً من موقع التبعية والتقليد.

وإذا ما فُكَّ الحصار من حول شعر المقاومة ونضجت أدواته الفنية فقد يصبح وريثاً للحركة الشعرية العربية على المستوى الفنّي، ورغم أنه ظل تابعاً للحركة الشعرية فإن سماته الفنيّة التي أعاقته بالماضي بدأت تتطوّر، وربما تؤهله لمركز متقدم.

ثالثاً: موقع شعر المقاومة الفلسطينية من شعر المقاومة العالمي

هناك شعوب كثيرة في العالم تنشد العدل والحرية والسلام، بعضها يرزح في ظلّ سلطات محليّة مستبدة، وبعضها الآخر تسيطر على أرضه قوى الاستعمار بشكل مباشر أو غير مباشر. وتلتقي هذه الشعوب في المبادىء،

---

(١) شوقي بزيع: شعر المقاومة الفسطينية، ص ١٥٧.

وتجمعها إرادة النضال والتحرر الوطني في العالم، ولذلك فالشاعر الفلسطيني المقاوم «هو النغم الذي يؤلف مع رفاقه الشعراء في مختلف البلدان المقهورة سمفونية التحرر والثورة»[1].

ومثلما يواجه الشعب الفلسطيني قوىً جبارة تتفق على انتزاع حقوقه، وتتعاون على مختلف الأصعدة، في متابعة العدوان والقهر المستمِرَّيْن عليه، يواجه أيضاً الشاعر الفلسطيني أكثر من أزمة قمع أو فاشستية محليَّة، إنه يواجه جريمة قضم أرضه، ثم تشريد من بقوا في الأرض المحتلة، أو غالبيتهم، كما يواجه أيضاً مسألة إلغائه من خريطة العالم المعاصر، وهو مطاردٌ من الخلف ومراقبٌ من الأمام، ولذلك فإن الكلمة عنده مُثقلة بشحنات القلق والتوتر والكآبة والإباء والفداء.

إنّ شعباً تمزّق بين الأرض المحتلة وخارجها، يصعب على أبنائه التلاقي، ليس للنضال فحسب، بل حتى للزيارة والاطمئنان، أو التنقل للعمل والعيش الكريم.

ولا يجد هذا الشعب دعماً يتجاوز الغذاء والدفاع المحدود عن النفس، فلم يتمكن من تحرير أرضه، وبقي مشرداً طيلة اثنين وأربعين عاماً، وما زال ينتظر وقفة العرب إلى جانبه في ساحة القتال بكل ما لديهم من أسلحة، وجيوش مؤهلة لمعركة التحرير.

ويحمل الشاعر الفلسطيني هموم وشجون شعبه هذه، ويشارك حركات التحرر في العالم المشاعرَ والدعم المعنويّ، ويصوِّر ذلك كلَّه في قصائده التي تُطْلع شعوب العالم على الحقائق المذهلة في قضية فلسطين وتشريد

(١) المصدر السابق، ص ١٦٤.

أهلها، ومحاربتهم، ثم نضالهم وبسالتهم، وهذا ما جعل شعوب العالم وشعراءه يتفهّمون حقوق شعب فلسطين وقضيته، وضرورة دعمه بكل وسيلة ممكنة، وبات هذا الشعر موضع تقدير هذه الشعوب وإكبارها، فبرهنت عن مشاعرها بأشكال مختلفة، سواء في مؤلفات الشعراء أو الندوات والمؤتمرات والجامعات ودور الإذاعة والتلفزيون والسينما، أو غيرها من المجالات. . .

ورغم ذلك فهناك فوارق في مستوى ثقافة الشعراء وأدائهم الفنّي، ودور كل من الرجل والمرأة، تبعاً للمستوى الثقافي، والمفهوم الوطني، والإمكانات المتاحة لهذا الشاعر أو ذاك، وهناك أيضاً تقارُب كبير بين الشاعر الفلسطيني وغيره من شعراء العالم، في تحمّل المسؤوليات، والقتال في صفوف الجماهير ضد التقاعس والتآمر والاستبداد والظلم والاستعمار.

ويبقى الشاعر الفلسطيني من جهة، وشعره المقاتل من جهة ثانية، مثلين رائعين لمثيليهما في العالم، وإن كُنّا لا ننكر أَنّ على الشاعر الفلسطيني أن يرفع من زخم هذا الشعر ونبرته، ومستواه الفنّي، حتى يصبح أكثر نضوجاً وفعاليّة وديمومة.

وفي الختام فإنَّ الشعب الفلسطيني الذي يتابع مسيرة النضال والفداء بعزمٍ وإصرار ـ رغم النكبات والجراح ـ يجب ألاّ يظلَّ وحيداً في مواجهة الأعداء الأقوياء الكثر، وعلى العرب أن يسارعوا إلى مساعدته ودعمه، والقتال إلى جانبه، حتى يتمَّ تحرير فلسطين، وتتحقق لهذا الشعب الأبيّ حياة حرّة كريمة، وعندئذٍ تُتاح الفرص الوافرة لشعراء فلسطين وأدبائها كي يُسهموا أكثر وأكثر في تطوير الشعر وسائر فنون الأدب.